

تفسير ابن كثير

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير ؛ لأنه

هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم ؛ ولهذا قال : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أي : ليس

بحولكم وقوتكم قتلتهم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أي : بل هو الذي

أظفركم [بهم ونصركم] عليهم كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة [

فاتقوا الله لعلكم تشكرون]) [آل عمران : 123] . وقال تعالى : (لقد نصركم الله

في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم

الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) [التوبة : 25] يعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس

عن كثرة العدد ، ولا بلبس الأمة والعدد ، وإنما النصر من عند الله تعالى كما قال : (

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) [البقرة : 249] . ثم قال

لنبيه - صلى الله عليه وسلم - أيضا في شأن القبضة من التراب ، التي حصب بها وجوه

المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته ، فرماهم بها وقال : شامت الوجوه . ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ؛ ولهذا قال [تعالى] (وما رميت إذ رميت) أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم ، وكبتهم بها لا أنت . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : رفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يديه - يعني يوم بدر - فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة ، فلن تعبد في الأرض أبدا . فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب ، فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين . وقال السدي : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلي - رضي الله عنه - يوم بدر : أعطني حصبا من الأرض . فناوله حصبا عليه تراب ، فرمى به في وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل الله : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقال أبو معشر المدني ، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب

القرظي قالا لما دنا القوم بعضهم من بعض ، أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبضة من تراب ، فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : شأهت الوجوه . فدخلت في أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول الله [صلى الله عليه وسلم] يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : في قوله [تعالى] (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث حصيات فرمى بحصاة [في] ميمنة القوم ، وحصاة في ميسرة القوم ، وحصاة بين أظهرهم ، وقال : شأهت الوجوه ، فانهزموا . وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقتادة وغير واحد من الأئمة : أنها نزلت في رمية النبي - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم - يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا . وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة ، عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتا وقع من السماء

، كأنه صوت حصاة وقعت في طست ، ورمى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك الرمية ، فانهزمتنا . غريب من هذا الوجه . وهاهنا قولان آخران غريبان جدا . أحدهما : قال ابن جرير : حدثني محمد بن عوف الطائي ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثنا عبد الرحمن بن جبير ؛ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم ابن أبي الحقيق بخيبر ، دعا بقوس ، فأتى بقوس طويلة ، وقال : جيئوني غيرها . فجاءوا بقوس كبداء ، فرمى النبي - صلى الله عليه وسلم - الحصن ، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق ، وهو في فراشه ، فأنزل الله - عز وجل - : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وهذا غريب ، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفيير ، ولعله اشتبه عليه ، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله ، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم ، والله أعلم . والثاني : روى ابن جرير أيضا ، والحاكم في مستدركه ، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا أنزلت في رمية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته ، فخدشه في ترقوته ، فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارا ، حتى كانت وفاته [بها] بعد أيام ،

قاسى فيها العذاب الأليم موصولا بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة . وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضا جدا ، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها ، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم ، والله أعلم . وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير في قوله : (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) أي : ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم ، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته . وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضا . وفي الحديث : وكل بلاء حسن أبلانا . وقوله : (إن الله سميع عليم) أي : سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغلب .